بقلم : د. اسحق لأور*

«لا اريد ان اعرف أسماءهم بتاتاً»

قراءة في كراهية أ.ب يهوشوع للفلسطينيين

١ . مقدمة : وحشية

الشفافية الايديولوجية في ادب أ. ب. يهوشوع، من جهة ، والشعبية التي يحظى بها من القراء ، من جهة اخرى ، تفتح المجال مجددا بواسطة هذا الادب لقراءة شيء وسط التورط الكبير والمتجه نحو الضبابية في حياتنا المتخيلة، أي كيف نفسر لانفسنا « كيف اننا موجودون في الموقع الذي نحن فيه».

وقبل ان اقوم بتنظيم جديد لأفكار أ. ب. يهوشوع وما يمثله(ادبه هنا لا يشغلني الا بقدر ادنى)، اود قراءة جزء من مقابلة معه. جرت المقابلة في ربيع ٢٠٠٤ مع اقتراب صدور كتابه « بعثة المسؤول عن القوى البشرية». الاختصارات الواردة في النص تشير الى تدخل الصحفي الذي اجرى المقابلة.

« من المحتمل ان تقع حرب مع الفلسطينيين. هذا ليس بالضرورة، وهذا ممكن. ولكن اذا وقعت حرب فإنها ستكون قصيرة جدا. من الممكن ان تكون حربا تستغرق ستة ايام. لانه بعد ان نقوم بتفكيك المستوطنات وبعد ان نتوقف عن ان نكون جيش احتلال ، ستكون قوانين اخرى للحرب. سنستعمل كل ثقلنا. لن نحتاج الى المضي وراء هذا المخرب او هذا المحرّض، ولكننا سنستعمل قوة تجاه السكان عامة. سنستعمل قوة بشكل كلي. . . ستكون حربا مختلفة بالكلية. ستكون قاسية جدا بالنسبة للفلسطينيين. فإذا اطلقوا صواريخ قسام باتجاه اشكلون سنقطع التيار الكهربائي عن غزة. سنوقف الاتصالات في غزة. نحول دون وصول وقود الى غزة. سنلقي بكل ثقلنا كما فعلنا مع مدن القناة المصرية في عام ١٩٦٩، وعندها عندما يصبح الالم الفلسطيني شيء اخر ، اشد صعوبة ، سيقومون بتصفية الارهاب

* شاعر وناقد ومحاضر في كلية الاداب في جامعة تل ابيب

بأنفسهم. الشعب الفلسطيني بنفسه سيقهر الارهاب. لن يكون له مبرر اخر. . . ليوقفوا اطلاق النار. لا يهم اذا كانت الجهة السلطة او حماس. من يأخذ على عاتقه مسؤولية الوقود والكهرباء والمستشفيات ويرى انها لا تعمل ، سيقوم في ايام قليلة بتوقيف اطلاق القسام. الظروف الجديدة ستغير بالكلية قواعد اللعبة . . . . ليست حربا مرغوبا فيها، انما بالتأكيد ستكون حربا مطهرة. ستوضح للفلسطينيين انهم اصحاب سيادة. الالم الذي سيواجهونه بعد الاحتلال سيوضح لهم انهم مجبرون على توقيف العنف بكونهم اصحاب سيادة . لانه من اللحظة التي سننسحب فيها لا اريد ان اعرف اسماءهم بتاتا. لا اريد بناء أي علاقة شخصية معهم. انا لست في حالة احتلال وشرطة و«بتسيلم». لكنني اقف امامهم موقف شعب امام شعب. دولة ازاء دولة. ولن اقوم بجرائم حرب ، ولكنني اضع امامهم كل قوتي. اذا حصل اطلاق نار على اشكلون لن تكون كهرباء في غزة».

(«غضب يهوشوع»، مقابلة مع أ. ب. يهوشوع، ملحق «هآرتس»، ١٩\٣\٢٠٠٤)

للوقوف عند استقامة أ. ب. يهوشوع المشكوك فيها يكفي التشديد على العبارة القصيرة« لن نحتاج الى الجري بحثا عن هذا المخرب او ذاك المحرّض». وبلغت عمليات القتل المنهجية لنشيطي الانتفاضة في الاراضي المحتلة في آذار ٢٠٠٤ لدرجة صيد الناس بشكل مخيف ، حتى ان الغسّالة الكلامية عند يهوشوع هي بمثابة شيء ممقوت، وهذا المكان غير ملائم للتطرق اليها. ومن الضروري فقط ذكر هذا الموقف من اجل حكم الاجيال القادمة: هو ايضا شجع القتل وسفك الدماء . سهل للغاية الادعاء امام من قرأ ادب يهوشوع: انه كاتب خال من كل احساس وتعاطف. الاقتراحات «التنفيذية» الهمجية التي طرحت في المقابلة مرت بهدوء. لم يجرؤ احد على الرد على هذه الهمجية سوى رسالة واحدة كتبتها عنات مطر وارسلتها الى هيئة التحرير، ولم يكن ردا من النوع الذي اقترحه بنفسه– توجيه عقاب بواسطة الالم. ما اود معالجته في هذا المقال ليس الانشغال بالكاتب يهوشوع او ادبه، انما ما وراء ذلك من وحشية لفظية تجاه الشعب الفلسطيني ، المنهار بسرعة.

اذا كنت في الماضي قد قرأت أ. ب. يهوشوع كجزء من الجهاز الايديولوجي الرسمي للدولة ، او القسم الادبي فيه، الا انني هنا اود وصف الميزة الاثنية لعنصريته: يهوشوع بكونه مؤشر كراهية «شرقية» تجاه العرب ، والشرق، او كراهية شرقية للشرق. وحصرا موقعه في مركز الحياة الادبية في اسرائيل، ووسط غياب فراملـه اللفظية في المقابلات(هو لا يكتب مقالات على وجه التقريب)، فإن ذلك سيساهم شيئا ما في فهم وادراك الجهاز المعقد في كراهية الشرق في اسرائيل.

٢ . « انا نبي بمفهوم معين»

في الاول من ايلول ٢٠٠٠ ، وقبل اندلاع الانتفاضة الثانية، بث التلفزيون الهولندي حوارا بين يهوشوع وبين الكاتبة والسينمائية الفلسطينية من رام الله ، ليانا بدر. تم تقديم يهوشوع كـ«نشيط سلام ملاحق في بلاده من قبل اليسار»، وتحدث بصفة سلطوية وعليائية ضد بدر، التي اشتكت من الضائقة الفلسطينية في عهد اوسلو. اليكم عظته الموجهة اليها:

« الآن انا غضبان جدا، الآن انا غضبان جدا، لانك غير منصفة. كانت هنا انتفاضة، وكل يوم جرح فيه فلسطينيون، وجرح اسرائيليون، كانت حرب طوال الوقت. منذ ثلاث او اربع سنوات(من اتفاقية اوسلو) لا يوجد ارهاب. كل شيء هادئ، لا توجد مظاهرات، من الممكن هنا وهناك، ولكن اقل، لهذا لا يمكنك القول ان هذا هو نفس الوضع. يوجد تحسن. . .

بدر: لديكم دولة، لديكم امنكم. لديكم كل شيء، ولكنني ، انا احيا في الفضاء.

يهوشوع(متهجما): لا ، لا ، انت لا. . .

بدر: لا توجد عندي دولة، لا يوجد عندي أي امن، ومن حوالي يسلبون ارضي طيلة الوقت. . .

يهوشوع: لا تجعلي من حالكم مسكينة اكثر من الواقع الحقيقي. توجد لديكم مشاكل، ولكن. . .

بدر(تحاول دون جدوى انهاء جملة): هذا الواقع. . . .

يهوشوع: توجد لديكم شرطة، يوجد لديكم ما يشبه الجيش، عندما ازور رام الله ارى أفراد الشرطة الفلسطينيين ممسكين بالكلاشينكوفات جالسين هنا وهناك، يوجد لديكم عرفات، الذي يستقبل في كل العالم كرئيس حكومة.

بدر: يمكنك انت أن تثق بهذه الشرطة، اما انا فلا. . .

يهوشوع(يحاول مقاطعتها): صدقي، صدقي. . .

بدر : ماذا تفعل من اجلي؟ عندما تسلب المستوطنات اراضي طيلة الوقت. . .

يهوشوع(يسكتها): لا . انها لا . . . .

بإيجاز، طلب، في عهد اوسلو، من الفلسطينيين ان ينظروا الى الاتفاقية من طرف واحد مع العلم انها اتفاقية ثنائية ، ولكن لما فشلت «الثنائية»، اتهم الضحية. وها هو بعد اربع سنوات في اذار ٢٠٠٤ ، في مقابلة لملحق «هآرتس»، قال يهوشوع:

« هذا صحيح بمفهوم ما انني نبي احادي الجانب. لم اكن وحيدا في هذا. كنا جماعة صغيرة. لاحظنا السلوك الفلسطيني في كمب ديفيد ورأينا الانتحارات هذه، وتوصلنا الى نتيجة انه يتوجب علينا الانفصال. ادركنا ان رؤية اليسار القديمة، ارض مقابل سلام، غير مجدية. اذكر نقاشا لليسار جرى في معليه هحميشا في ٢٠٠١ شارك فيه يوسي بيلين، يائير تصبان، وادباء ورجال فكر. قلت هناك اننا توصلنا الى العملية الجراحية الكبرى للسلام، الا ان المريض ينزف بصورة مريبة. على ما يبدو ان شيئا ما غير صحيح. من الممكن ان المريض غير مهيأ للعملية. ولكنني عندما ارى كل هذا الدم، فانني غير مستعد تقبل ما يقوله الاطباء، انه يجب الاستمرار في العملية. انا غير مستعد لتقبل ما يقوله يوسي بيلين: نغلق هنا ونغلق هناك وننهي. ونذهب الى طابا ونذهب الى جنيف. لا ، قلت، ملزمون بإيقاف العملية الجراحية. («غضب يهوشوع»). »

من المناسب التطرق الى ما تعرض له يهوشوع عندما انطلقت الانتفاضة الحالية. لم يكن نبيا بالمرة، حتى لما هو «احادي الجانب». حتى لسانه المتلعثم بعيد عن أن يكون نبيا. انجر وراء الاغلبية وعندما كانت الاغلبية مرتبكة كان هو كذلك. بهذا الشكل انتمى يهوشوع الى نفس مجموعة اليسار الصهيوني ، التي ساهمت في بناء الموقف الاسرائيلي الرسمي ، بموجبه« اقترحنا عليهم الكل ، ولكنهم رفضوا«(موقف ، فقط تراجع ما من المحتمل في حالة ما ان يعيد الحمائم الى السلطة). الشيء الذي كون عدم القدرة على الاصغاء ، والذي وضع سدادة للاذن هو الرواية الكاذبة « اننا اقترحنا عليهم كل شيء». لم يجر ايهود باراك الفلسطينيين سدى في كامب ديفيد انما ما كان معروفا بحركة السلام الاسرائيلية ايضا. هكذا قال لجريدة «هآرتس» مع بداية الانتفاضة، في مقابلة انتجت «اضطراب اليسار»، في اختيار اشخاص كانوا مرتبكين في حرب لبنان: «رد وخيبة امل (اليسار الاسرائيلي) مفهومة. اجتمعنا مع عرفات، واقتراح باراك كان كريما وحطم الادعاء انه فقط بإستعمال القوة والضغط الدولي يستطيع الوصول الى انجازات كبيرة. هذه خيبة الامل وهو قام بفعل خطأ كبير، لان امامه كان ماثلا باراك وليس شارون او نتنياهو، مدعوما بإجماع واسع لإنهاء المسألة» (ملحق هآرتس ٢٠\١٠\٢٠٠٠). هذا هو الموقف الرسمي لاسرائيل ، كان وما زال. تم صياغته بدقة متناهية في مكتب رئيس الحكومة انذاك. ولكن بعد شهر من ذلك، وفي السابع عشر من تشرين الثاني، بتناقض تام لما قاله يهوشوع لليانا بدر(«الا تتظاهري انك مسكينة اكثر من الواقع. توجد لديكم مشاكل ، ولكن. . . »)، بتناقض لما قاله لملحق »هآرتس« مع انطلاقة الانتفاضة(«امامه مثُل باراك وليس شارون او نتنياهو، مع اجماع واسع لإنهاء المسألة»)، وقع يهوشوع على عريضة بعنوان « اوقفوا التدهور». وورد في العريضة: «حكومة باراك لم تفكك مستعمرة واحدة . استثمرت اكثر من حكومة نتنياهو في تطوير المستعمرات وتوسيعها(. . .) ابقاء المستوطنات كما هي او توسيعها تحول دون مد خط حدودي منطقي بين اسرائيل وفلسطين. معنى ذلك تكريس الصراع». وضعت هذه الصياغة على يد «حركة السلام الآن» في القدس. تنديدا بهم يقال انهم صمتوا فترة زمنية طويلة في مسألة تطرقت اليها العريضة، تماما كالمثقفين الذين وقعوا عليها. ولصالحهم يقال، انهم عرفوا الحقيقة، وثقوها، وجمعوا معلومات كثيرة بشأنها ، طيلة سنوات اوسلو من جهة احادية الجانب في الضم والاستعمار. كل من عرف الحالة في المناطق في فترة اوسلو، حتى لو قرأ هآرتس فقط، عرف ان هذا الوضع ما هو سوى برميل متفجرات جاهز: جهنم الحواجز، مصادرة الاراضي، توسيع المستعمرات، مد طرق الابارتهيد، تمزيق الضفة الى كانتونات كبيرة، تمزيق قطاع غزة الى مناطق استيطانية. الامور لم تحدث خلف جبال ظلماء، والاهم من كل هذا ان باراك لم يقترح عليهم شيئا جديا. الا ان باراك غادر وحل مكانه امينه العسكري شارون. التقارب بينهما فيما يتعلق بمصطلح الحقيقة ومصطلح السلام موضوع لم نتطرق اليه بشكل كاف. سنوات مرت. تجند عاموس عوز في الانتحابات الاخيرة لمساعدة

«ميريتس»، هاجم حزب « شينوي»، وهاجم شارون. امتنع يهوشوع من التدخل في الانتخابات. حافظ على قوميته المظلمة. وعبر عن بهجته بعد الانتخابات من انتصار شينوي . ما هو الاصلي لديه رغم كل هذا؟ كراهية عرفات. وهنا ليس الحديث عن نبي. وعندما تحولت الكراهية لتكون عملة متداولة بيد تاجر ، منح فمه متسعا من الكراهية.

٣ . «اكره عرفات بشكل شخصي»

منذ ان اعتلى شارون سدة الحكم تحولت كراهية عرفات الى استراتيجية اسرائيلية من خلال حملة اعلامية منظمة من هيئات عليا، يشترك فيها معظم صحافيينا الذين يزودون بطروحات بشعة من الشاباك والاستخبارات. هذه الكراهية ليست لعرفات فقط. هذه كراهية لأقلية مقموعة، تكافح من اجل حريتها. وبدلا من الغوص في وصف هذا الصراع – بكل تياراته والتوترات ومن خلال محاولات قتل كاملة لكل المشتركين الفلسطينيين في الصراع – يقومون في اسرائيل بمهاجمة الرمز. يقولون عن عرفات انه ليس ديموقراطيا(«لا توجد شفافية»)، ومن جهة اخرى يتوقعون منه ان يكون شرطيا/معذبا/قاضيا/سجانا لكل من توجه اليه اسرائيل اصبع الاتهام، كما كان يفعل في عهد اوسلو. الادعاء الحقيقي ضد عرفات ليس ضد «غير شفافيته»، انما عدم جدواه: انه لا يقوم بدور خائن وطنه. ويشترك أ. ب. يهوشوع في تصريف هذه الكراهية بمقاييس ليست صغيرة تتماثل والتوجه الرسمي لكونها تتسوق جيدا في الاسواق الاسرائيلية وهو مزود بكراهية عميقة للعرب. انه يكره عرفات في حقيقة الامر مثل كل الجمهور. قال يهوشوع في مقابلة لجريدة «كل العرب» الصادرة في الناصرة في شهر كانون الاول عام ٢٠٠٢ :«اقولها بوضوح تام انني شخصيا اكره عرفات من صميم قلبي». لماذا؟ «الحلم الذي اردنا تحقيقه منذ ١٩٦٧ بإقامة دولة فلسطينية الى جانب اسرائيل قد تبدد». وهنا تصبح الامانة مركز النقاش.

ما معنى«اردنا»؟ من هو «اردنا» في عبارة» الحلم الذي اردنا تحقيقه منذ ١٩٦٧ وهو اقامة دولة فلسطينية الى جانب اسرائيل؟ «الليكود» ؟ حزب العمل؟ لا . الحزبان لم يكونا الى جانب اقامة دولة فلسطينية، ومن المؤكد ليس بعد ١٩٦٧. يقصد يهوشوع نفسه، ولعدد من المثقفين من اليسار الصهيوني. مجرد وجودهم، او رغبتهم، يشكل دليلا على رغبة الاسرائيلي للسلام، «الحلم الذي اردنا تحقيقه». هل هو غبي فقط ، يهوشوع؟ لا . هو يتحدث الى العرب، الى صحيفة عربية، ولهذا فهو يمثل شعب اسرائيل، ولا يوجد لديه عيب في ان يقول«اردنا»، لانه مقبول ان شعب اسرائيل كان دائما يريد السلام، على الاقل بأذان العرب. ولأن الحلم تبدد، ليس بسبب المستوطنات التي اقامتها حكومات اسرائيل، ولانه لا يوجد حل بسيط للقضية الفلسطينية كما«حلمنا منذ عام ١٩٦٧»، لا يوجد لدى يهوشوع خجل وحياء في ان يلقي باللائمة على الضعيف. اولا، هذا هو الامر الايديولوجي الاسرائيلي. ثانيا، حوّل سيادته لاثبات صدق طريقه. وهذه هي العبارات: «مؤخرا بدأت اشكك في قدرة عرفات على الاستمرارية وان يكون شريكا لاسرائيل». فقط مؤخرا؟ لا. قال لجريدة «كول بو»الحيفاوية، شهور قبل ذلك:« قبل ٣٧ سنة لم اتحمله»، ولكن لـ«كل العرب» كان مستعدا ان يفسر لماذا مؤخرا ينهي مع عرفات: «انه لا يفكر بمصلحة شعبه الذي يعاني حالات صعبة في الضفة الغربية وقطاع غزة وايجاد حلول آنية لمشاكله، انما يفكر بالقضية الفلسطينية بشكل عام وعلى الطريق التي سيعيد فيها اللاجئين». واليكم مهام عرفات اذا اراد ان يكون زعيما جيدا: ان يعمل في الادارة المدنية، ان يحل مشاكل شبكات المجاري في الضفة وغزة، وان يرضي يهوشوع والمقاتلين الاخرين منذ ١٩٦٧ بخصوص دولة فلسطينية. القضية الفلسطينية هي مسألة تخص اسرائيل. انها خلاصة الاستعمار الصهيوني. ما يحدث في تاريخكم اتركوه لنا. نحن، الذين عدنا الى التاريخ كما هو معروف، مع الولايات المتحدة التي تكتبه وتمحوه، سنحل مشاكلكم. انتم عالجوا قضايا المجاري.

٤ . «كان بإمكانهم اعلان عصيان مدني»

المقابلة في «كل العرب» هي مؤشر، لان يهوشوع لاول وهلة لم يتحرر من الشعور بكونه يتحدث الى العرب، لهذا فإنه يتحدث كيهودي، ممثل الشعب اليهودي، ممثل دولة اسرائيل: «لو كنت فلسطينيا، كنت ابكي واصرخ في وجه العالم، بأنني اكره عرفات وكنت انطلق ضده». وها نحن نعود الى نصوص يهوشوع. هكذا تماما انتج يهوشوع شخصيات عربية في رواياته «لو كنت فلسطينيا ، كنت ابكي واصرخ». «هم يقولون ما يريد هو قوله، (او انه يقطع لهم اللسان). هكذا كان نعيم «العاشق»، عندما اقتبس بياليك. هكذا كان الابطال العرب المصنوعون من ورق في «العروس المحررة». ها هو يهوشوع قال لجريدة«كول بو» في ٢٠٠٢: «انا لم اتبدل، آرائي لم تتغير، ولكن ما العمل، الوضع تغير وانا اعترف، انا لا افهم، ولا استطيع ان افهم،

الفلسطينيين. هذا يثير جنوني، تحولت الى مرعوب، هذا الصباح دخلت في نقاش وبدات بالصراخ، وزوجتي قالت لي، ما الفائدة التي تجنيها من صراخك هذا. كانت صادقة ولكنني بقيت في حالة الرعب. شاب ابن ١٧ عاما مع حزام مواد تفجيرية وصبية ابنة ٢١ سنة ليست متدينة تفجر نفسها؟ «ليس فقط انه صادق، انما زوجته تقول له» لم لك ان تكون متبدلا؟ ويتابع في اقوال الحمق لجريدة «كول بو»: «لا يمكن ربط كل شئ بالاحتلال. كان للفلسطينيين عدة امكانيات، ما عدا الانتحار الجماعي. كان بإمكانهم اعلان عصيان مدني، اللجوء الى طرق المهاتما غاندي».

اتذكرون عشرات المتظاهرين الذين قتلوا وجرحوا على يد قناصة اثناء المظاهرات في بداية الانتفاضة؟ كان يكفي قراءة ما كتبته عميره هس اثناء الاحداث في «هآرتس»، او لاحقا، التقرير الشامل لبن كسبيت في «معاريف» في راس السنة عام ٢٠٠٢، او من خلال التلخيص الذي كشفه الجنرال(احتياط) عاموس مالكا في ربيع ٢٠٠٤ بما يتعلق في تحول الاحتجاج الى عنف. ومن الممكن ذكر اسم ريتشيل كوري التي قتلت اثناء الاحتجاج السلمي وغيرها كثير. وماذا بخصوص المظاهرات الخاصة بالجدار في ربيع ٢٠٠٤ ، وماذا بشأن اطلاق النار على متظاهرين سلميين؟ هل كان يهوشوع ينضم الى اضراب فلسطيني غير عنيف عن الطعام ؟ الحديث هنا عن ادعاء احتيالي يقول هكذا: انا لا اعارض صراع الفلسطينيين من اجل الحرية، انا اعارض الوسائل في الصراع. الجيش الاسرائيلي يظهر في هذه الرواية فقط عندما يبدأ العنف. اسرائيل لم تميز ابدا بين مقاومة عنيفة للاحتلال وبين مقاومة سلمية غير عنيفة. اضافة الى ذلك، قمعت اسرائيل على مدار سنوات طويلة كل تنظيم سياسي في المناطق المحتلة. لم يكن التحدي الاسرائيلي توجيه الصراع الى صراع سياسي ضد الاحتلال. كان التحدي الاسرائيلي في اقامة منظمات من عملاء («روابط القرى» مثلا)او توجيه الصراع الفلسطيني الى صراع مسلح، لانه فقط في حالة الصراع المسلح يمكن الحصول على مساعدة من النوع الذي يقدمه يهوشوع ومن هم على شاكلته، بواسطة السلوك القبلي.

وهكذا يعمل مبدأ القبلية: حول جرائم مواطنين يهود ضد مواطنين عرب مسموح الاحتجاج ومحبذ ايضا؛ولكن حول جرائم الدولة وجيشها ضد مواطنين عرب – ممنوع. وحصلت القبيلة على اذن للتوجه الى العائلات الثكلى لتقديم التعازي في اعقاب قتل متظاهرين في الناصرة في يوم الغفران ٢٠٠٠ على يد متعصبين يهود من الناصرة العليا(وليس على يد شرطيين). وتجدر الاشارة هنا ، الى انه طيلة خريف ٢٠٠٠، لم يُسمع صوت القبيلة الصغيرة، فقط في حالة مواطني الناصرة اللذين قتلا على يد مواطنين من الناصرة العليا. ووعد يهوشوع اثناء زيارة التعزية للاب الثاكل انه عندما سيخرج الى تأييد الفلسطينيين في المناطق(هكذا نشرت جريدة «هعير»): «الآن دخلتم الى العقلية الاسرائيلية، ان عرفات اصبح مكروها لدى الجميع والفلسطينيين ايضا». لماذا قتل الشاب؟ لماذا قتلوا ١٣ مواطنا اسرائيليا متظاهرين في احداث اوكتوبر ٢٠٠٠؟ اليكم مراوغة ومكر يهوشوع: شهران قبل ذلك باع لليانا بدر «الاحترام الكبير الذي يحظى به عرفات» كتعزية على فقدان اراضيها وحريتها. الآن يبيع للاب الثاكل من الناصرة كراهية الاسرائيليين لعرفات، كتعزية على موت ابنه في مظاهرات تأييد مع ابناء شعبه في المناطق. «مل الشعب الاسرائيلي من الفلسطينيين»، قال هكذا لأب فلسطيني ثاكل من الناصرة ، ككلمات تعزية .

٥ . «اسرلة»

بعد سنة ونصف من زيارة الاب الثاكل تبلور عند يهوشوع موقف واضح تجاه قتل المتظاهرين في اوكتوبر اياه. الى الجحيم زيارة التعزية والى الجحيم ما قاله للاب الثاكل. قال في مقابلة لـ«كل العرب»في كانون اول ٢٠٠٢: «فيما يتعلق بأحداث اوكتوبر ٢٠٠٠، اعتقد ان عرب اسرائيل قد اخطأوا في انتفاضتهم هذه وكان يتوجب عليهم تقديم مطالبهم الى الحكومة بدلا من الخروج الى المظاهرات التي ادت الى الاخلال بالنظام العام والى موت كثيرين». المظاهرة ادت الى موتهم، بتناقض مع مظاهرات اليهود، هناك يعودون الى بيوتهم بسلام. من كان بحاجة الى لجنة اور؟ من كان بحاجة الى التحقيق في شئ ما؟ يهوشوع ، في اذان العرب، بنفس اسلوب الحاكم العسكري، يعرف وينص كلماته. ويتابع في المقابلة: «للاسف الشديد عرف العرب بعد الاحداث انه من واجبهم العودة الى مسار حياتهم السليم الذي ساروا فيه لسنوات طويلة». لسنوات طويلة كان العرب في اسرائيل كما يجب ان يكونوا: واقعين تحت التمييز، مهانين، مسلوبين، ولكن الاهم– هادئين. وبعد القتل في اوكتوبر، ولأنهم لا يفهمون الا لغة القوة، رجع العرب في دولة اسرائيل ليكونوا جيدين. الاستنتاج الاستعماري من المقابلة: «نحن كيهود في الدولة نمثل امام مشكلة واقعية وهي كيف

يمكن تنفيذ اسرلة العرب ، وانا اعتقد انه من واجب الجميع ، اليسار واليمين والبقية السعي لتحقيق هذه الغاية حتى لو تطلب ذلك السير في مراحل ». الرغبة في الا يكون عرب بيننا ، او ان يتحولوا لجزء منا(اسرلة) يظهر بتخوف يهوشوع من التعددية. هذا الخوف هو ذاته المحور الحقيقي في «العروس المحررة»، الرواية العبرية العنصرية جدا التي كتبت في السنوات الاخيرة. جدار العنصرية في المناطق، قفص غزة، كل هذه تتخذ لها دعائم رعب وخوف في هذه الرواية: العرب من اسرائيل ليسوا فلسطينيين. عندما يتصرفون كفلسطينيين ، يتحولون الى مشكوك فيهم كخونة او متخلفين. يتصورون كقرويين هادئين لا علاقة لهم بالسياسة. الامل بالنسبة لهم ينادي: امنحوهم فرصة للعيش. وللفلسطينيين وراء الجدار امنحوهم ان يعيشوا هناك. ولا حاجة للقول ان كل الذين كتبوا عن الرواية هذه لم يتعرضوا للجانب الاستعماري فيها والذي وصف العرب من طرف الجدار هذا، الا الوصف القاتل الذي وصف به العرب من الطرف الاخر للجدار. انما تم وصف الطرفين بكونهما يشكلان خطرا. لقد خصصت مقالا طويلا لهذه الرواية واعتقد ان ذلك كاف.

٦. مولخو وريفلين

حسب اعتقادي كتب يهوشوع رواية واحدة جيدة وهي «مولخو» (١٩٨٧). بركة حلت عليه، مع الحزن الذي لفه برحيل والده، مع احاسيس بالذنب لتنكره الطويل لمنبته، ومع اكتشاف الشرقيين في المجتمع الاسرائيلي، منذ انتخابات ١٩٨١. يقف في مركز الرواية مولخو، وهو سفارادي(يهودي شرقي) من القدس يعيش في حيفا، ومن فترة قريبة ترمل. كل التمييزات التي امتلكها بين الجيد والسيء، وبين الاوروبي الايجابي(موسيقى كلاسيكية في الاساس)وبين «الشرقي السلبي»(موسيقى صاخبة في الاساس)، كل هذه فقدها برحيل زوجته الاشكنازية، التي كانت بما يشبه امرأة قاضية. مولخو تحرك بين «اوروبا» (الكرمل الاشكنازي وبرلين)، وبين اسرائيل الشرقية، ولم يتمكن من العثور على مكانه. تكثر في الرواية شهادات لكراهية المؤلف للسفارادية، خاصة بواسطة عيني المرأة الميتة(التي فرضت على مولخو سباحة منظمة، على سبيل المثال). «العروس المحررة» بالمقابل، على بعد زمني مكون من ١٥ عاما، هي رواية سيئة ، وذلك لان الرقم تحول الى رجل متكبر. بالامكان العثور على فلتات قلمية «خاصة بالمؤلف»التي تربط بين مولخو والعروس المحررة. على سبيل المثال، كما الزمت الزوجة الاشكنازية مولخو السفارادي بالسباحة ، هكذا اجبرت زوجة ريفلين زوجها على الاستحمام قبل ان يضاجعها لان رائحة قرية عربية التصقت بجسده. وايضا مسألة الموسيقى الكلاسيكية تظهر في رواية مولخو، كمركب غريب للبطل السفارادي. في «العروس المحررة» عندما «يتظاهر»انا المتكلم، بكونه اشكنازيا، أي اوروبي، يجري وصف الذهاب الى الكونسرت بكونه جزءا من حضارته. فلتة القلم الاساسية نجدها في اسم البطل. مولخو هو اسم مقدسي سفارادي اصلي من «اليشوف القديم» نما قبل الصهيونية، مثل «ماني». ريفلين، بطل«العروس المحررة»، هو الاسم الاصلي والوحيد تقريبا للاشكنازيين ابناء هذا اليشوف ، المقدسي ، السابق للصهيونية، العلماني اكثر او اقل. بكلمات اخرى: يصر يهوشوع على تغيير منبت البطل ومعه ايضا منبت «انا المتكلم». بإختلاف كلي لتصريحاته التي سنقف عندها عما قليل ، يعرف يهوشوع منذ «مولخو» انه لا يوجد تعريف «للاسرائيلية» دون دمج الاشكنازية، او غير الاشكنازي. الاسرائيلية لا تحيّد المنبت «السابق»، انما تأخذ المنبت السابق كنقطة انطلاق. ها هو يهوشوع يكتب بتصريح واضح، في مقدمة كتاب والده الاخير، الذي رأى النور بعد رحيله، عن طفولته في القدس الجديدة، عشية اقامة الدولة، في عضوية الكشاف والدراسة في كلية رحافيا، وبين المكان الذي قدم منه والذي لم يكن لديه مبرر الا التنكر له، في حال انه اراد ان يكون اسرائيليا:

السفارديون القدماء، شيوخ العائلة الخ. . . كانوا جزءا من تكويني ولم يكونوا الجزء الذي نادى بالانتماء. سنوات التحضير لاقامة الدولة تطلبت ابطالا اخرين، الذين تابعتهم طويلا من نافذة بيتي في شارع الملك جورج، يتجولون حول سينما «تل اور» وبيت الهستدروت. (. . . .) لم يكونوا متصلين مع جدي الذي تجول بعباءته السوداء وطربوشه في شوارع القدس، الذي كنت التقيه عندما اكون مع زملائي في عودتنا من «الكلية العبرية»، فكنت اخجل قليلا واتململ(أ. ب. يهوشوع، «الجدار والجبل»، ١٩٩٠، ص ٢٢٣).

ومتابعة: «لم اكن ارغب في ان اكون اشكنازيا، انما اسرائيلي، وهذا كان هدفا ايديولوجيا جيدا، واخلاقيا وصحيح » من كل الجوانب، ولكن – حتى اكون صادقا مع نفسي– كان نوع من الطمأنينة ، خاصة

فيما يميز بين موجات الهجرات من البلدان العربية في مطلع الخمسينات مع كل مشاكلها». اليكم النقطة المركزية والمهمة في هذا الطرح: كراهية يهوشوع للعرب تبدأ في موقع اخر واستباقي. في ذلك المقال الذي كتبه بعد موت والده، بعيدا عن كل نقد ممكن على اقواله، وايضا غير مدافع، يبسط تخيلاته على هذه الجالية، من الجالية السفارادية الى الجالية الاشكنازية، النموذج الصريح والايديولوجية الصهيونية لكل انواع اليهودية:

انا عشت الحياة التي كانت ترتدي لباسا يهوديا مندمجا في المدينة الكبرى في اوروبا . في النهاية لم اكن راغبا في ان اكون اشكنازيا انما اسرائيليا وهذا كان هدفا ايديولوجيا جيدا، اخلاقيا وجيدا من كل النواحي، ولكن كانت مع هذا – لاكون صريحا حتى النهاية – امرا مريحا خاصة بما هو مختلف من موجات هجرة اليهود العرب الذين وصلوا في مطلع الخمسينات مع كل مشاكلهم (هناك، ص ٢٣٢).

وبعد ١٥ سنة ، دون ان يبدل عباراته، سوى هجوم مرموز اليه حول تحليل ايديولوجي مثل هذا، المقترح هنا، في مقابلة في اذار ٢٠٠٤، يحاول يهوشوع تحديث عباراته بالنسبة للجرح غير المشفى المتعلق بالسفارادية. واستجابة لواضع المقابلة، يشتكي من «التمييز» بين الطلبات منه وبين الطلبات من يزهار«الروسي» على سبيل المثال:

اذا كنت فلانا لا يطلبون منك ولاء للفلانية. لا يتوجهون الى يزهار في السؤال عن ماضيه الروسي. بمعنى ، يوجد هنا طرح خفي اذا كنت منتميا الى اقلية ضعيفة فلن تتركها. ولن تخونها. وانا لا اوافق على هذا. منذ ان وعيت على حالي، «الانا» عندي كان موجها نحو الاسرائيلية. الايديولوجية كانت اسرائيلية. لم افكر قط ان لدي مهمة ما خاصة فيها مسؤولية خاصة فيما يتعلق بمجموعة منبتي واصلي. (ملحق «هآرتس»، ٢٠٠٤/٣/١٩)

لا شفاء عند يهوشوع. كل ما يؤلمه انه يريد تغطية الالم بواسطة الكتابة الخيالية الاسرائيلية، عديمة الجذور، الحيادية، او الاوروبية، والتي فيها المعارضة بين اليهود وغير اليهود، او بين اليهود في الشتات واليهود في اسرائيل. كل مساراته الثقافية تمر عن طريق نبذ الفارق بين الشرق والغرب داخل الشعب اليهودي. ولهذا، فإن هذه النقطة المؤلمة، والتي بموجبها الكيان الاسرائيلي هو المكان الذي فيه يتخلص الجميع من هويته«السابقة» ويرتدي «هوية جديدة»، وعلينا الاشارة الى نقطة الانطلاق «عذابات يهوشوع». اذ ان يهوشوع الذي يهتم هنا في الاشارة«لم افكر انه توجد لدي مسؤولية او مهمة خاصة فيما يتعلق ومجموعة المنبت او الاصل التي انتمي اليها»، طبعاً هو يعتقد ان لديه مسؤولية ومهمة خاصة لمجموعة هدفه، اذ ان كل مشروعه النشري وكل ما هو محدود وكل ظهوراته العامة تندرج في بعثته «بما له علاقة ومجموعة الهدف ، أي «الاسرائيلية»، وخاصة الاشكنازية. انتبهوا جيدا الى «الاثبات» القادم للكيان الجديد، لاول وهلة لا شرقي ولا اشكنازي:

لي ولشقيقتي لا توجد لهجة شرقية. لوالدي ووالدتي كانت لديهما لهجة شرقية. اذا افتكرت في هذا فإنه امر رائع: ولد ابن سنة يستوعب ان عليه تبني اللهجة العامة ، الاسرائيلية، وليس اللهجة الخاصة ، الشرقية. بحيث ان مصدر هويته لا يكون عائلته وبيته انما يكون مصدر الهوية ، الاغلبية ، الاصدقاء ، المدرسة. وهذا في مستوى اولي . بمعنى ان البيت يقول لك الا تكون مثل البيت. كن مثل المعلمين كن مثل الاطفال في الروضة، الا تكون مثل ابيك وامك. (هناك).

هذا هو المستنقع الذي تنبت فيه كراهية يهوشوع لذاته. حتى هنا ، عندما يستعمل اللغة المحكية مقابل اللغة الادبية المكتوبة يرفع راية «الحداثة» منذ ان كان يافعا. وبدلا من فهم ما يوجد بعيدا عن لهجة الام، وعن اغاني التهاليل، ومن الطريقة التي ابعد الاولاد فيها عن لهجات اهاليهم بمؤازرة اهاليهم ، او رغما عن اهاليهم، او مجرد محاولة فهم وادراك ما يجري لمن يتخذ ملجأ بعيدا جدا عن بيت ابيه، عائلة ابيه، وكل ذلك من اجل رمز اخر، بدلا من محاولة فهم وادراك اذا كانت اللهجة الاسرائيلية هي بالفعل «ليست اشكنازية» وايضا«ليست سفارادية»، يدفع يهوشوع جانبا كل محاولة انتقاد ويدافع عن نفسه وتوجهاته من خلال ملاحقاته غير الاخلاقية ، على حد تعبيره: انا ادعو للصهيونية، للمصلحة العمومية ، وانتم تسألونني عن مصلحة الاقلية. انا اكره الاقليات، لانني لا اريد ان اكون اقلية. ١٥ عاما قبل ان وصل الى لهجة امه المفقودة، اوضح يهوشوع الامور التالية،

الشتات بصورة اكثر تطورا.

في مرحلة طفولتنا وشبابنا كان الابطال الذين عرضهم والدي علينا ليسوا الحاخامين السفاراديين او وجهاء الطائفة انما كبار الموظفين في مكاتب حكومة الانتداب البريطانية حيث عمل فيها، هؤلاء مثقفو الجامعة العبرية، حيث انهى هناك دراسته الثانوية في مطلع سنوات العشرين. هؤلاء كانوا مقربين اليه والذين كان يتحدث عنهم بلهفة وشوق. («الجدار والجبل»، ص ٢٣٢).

ومباشرة جاء التفسير الاوتوبيوغرافي، الذي يمنحنا تفسيرا ما عن وظيفة المرأة الاوروبية في «مولخو»، هذه التي تفرض على مولخو الاستحمام يوميا، وايضا شيء ما على الزوجة القاضية في «العروس المحررة»، التي تفرض على زوجها الاستحمام قبل المضاجعة، بعد زيارة الى قرية عربية . هكذا يقول في مقال اوتوبيوغرافي: «الا يكون غريبا وعجيبا انني التصقت بحب روسي كهذا جذبني ليس فقط الى الادب والموسيقى الروسية انما وجهني كجهاز رادار دقيق للغاية الى الخلفية الروسية لزوجتي المستقبلية» (هناك).

وهنا صدمة يهوشوع- صدمة اعداد كبيرة من اليهود في اسرائيل- مغلفة بغطاء كلامي-ادبي : «رفضه الدائم يمر طيلة الوقت في طريق التمييز بين الشرق والغرب، التمييز الذي يمر داخل اسرائيل، داخل اليهود في اسرائيل، وداخل الحياة الاسرئيلية. ولكن لمواجهة شدة الصدمة، من منطلق التماثل التام مع الاوامر الايديولوجية في الدولة، يعرف يهوشوع نفسه بأنه غربي، حتى انه يدعو كل اليهود الى تعريف حالهم غربيين، بواسطة صدام دائم غير متوقف مع الشرق، ليس فقط دفاعا عن النفس امام العرب انما من وراء رغبة وشهوة لانتاج هوية غربية. جيد ليهوشوع الاصطدام مع الشرق، شريطة ان يضم هذا كل اليهود المتطورين في الغرب. ها هو ذا يصيب العصب الحساس، مجددا من منطلق دفاع عن النفس واعتذار:

انا اعتقد ان الخطوة كانت صحيحة. كان صحيحا التنحية، صحيح انه كان يتوجب صب ارضية اسمنتية جديدة لهوية جديدة. انا اعتقد ان الشرقيين الذين خطوا هذه الخطوة قد حققوا مكاسب. انظر الى نسيم زويلي، عامير بيريتس وايلي عامير. بالمقابل الشرقيين الذين لم ينجحوا في التنحي بقوا مع مرارة شاس. لم يكن لديهم من مبرر الا العودة الى مواقع دينية(ملحق «هآرتس»، ٢٠٠٤/٣/١٩).

هل كان صحيحا السعي الى التنحي؟ هل عامير بيريتس (عضو كنيست ، سكرتير الهستدروت. المترجم) هو الدليل؟ هل ايلي عامير (كاتب معروف من أصل عراقي . المترجم) هو الدليل؟ هل أ. ب. يهوشوع ذاته هو الدليل؟ لماذا الحاجة الى التنحية؟ الا يمكن الهجرة والمحافظة، كالمهاجر الايطالي في امريكا، او المهاجر اليهودي من غاليتسيا الى اسرائيل؟ لا . لا توجد هنا الهجرة ذاتها. لا توجد هنا نفس الهجرة، لان هجرة يهوشوع تضم الخجل في ان يكون شرقيا، لان يهوشوع هنا كان الموضوع وليس جماهير الشرقيين الذين وضعوا في موقع حساس، ولا اريد الاطالة في هذا المجال. اضافة الى ذلك هل يستطيع كاتب ان يتنحى دون ان يدفع بوحشية، ليس فقط وحشية تجاه ذاته، انما بوحشية تم اقتباسها بتوسع في مطلع هذه الطروحات؟ كل هذه الاسئلة متعلقة بالانسان ابراهام ب. يهوشوع. هذا الانسان لا يشغلنا، كما ذكرنا سابقا، انما شيء جوهري اكثر، والاسئلة التي يطرحها هي اسئلة حاسمة: هل الكيان الاسرائيلي هو ليس شرقيا وليس اشكنازيا؟ واضح ان هذا خطأ فادح. لا يوجد أي شيء واضح اكثر من عدم الدقة في معارضة يهوشوع ذاته: او حداثة، التماثل مع الموديل الاشكنازي، او شاس (التي جزء كبير من نماذجها تبني الموديل الديني المتزمت لتيار – ليطا). الامكانية الاخرى، هي للفهود السود، او للقوس الديموقراطية، أي الامكانية السياسية الشرقية الاسرائيلية، أي امكانية مواجهة السياسة في حالة شرقية ، كل هذا لا مكان له في اراء يهوشوع. ٢

٧. ان تكون شرقيا في اسرائيل

منذ البداية لم يكن التقسيم بين الشرقيين والاشكنازيين على قاعدة ثقافية(رغم ان التقسيم ذاته قد كون ثقافة شرقية في البلاد)، ولم يكن تقسيما بين غنى وفقر(رغم ان الشرقيين قد تحولوا الى اغلبية الفقراء في البلاد وتحولوا الى اغلبية بين السجناء الجنائيين في البلاد، وتحولوا الى اغلبية في اوساط الطبقة العمالية اليهودية في البلاد). لم يكن تقسيما على قاعدة اللون او البيولوجيا(اعتمادا على مصطلح «السود»).

التقسيم بين الشرقيين والاشكنازيين لم يكن تقسيما لاي شيء «طبيعي» او «ثقافي». قبل كل شيء ، كان هذا تقسيما على قاعدة سياسية، أي تقسيما من قبل الدولة. لا يمكن التفكير بشان هذا التقسيم قبل تكوين الدولة اليهودية، او قبل تطبيق الصهيونية في هذه البلاد في قلب الشرق الاوسط. بالرغم من انه قبل الصهيونية كان في البلاد يهود سفارديون ويهود اشكناز، ولم يكن للعلاقات بين الطرفين أي صفة قومية او ثقافية او علاقات ماض مشترك، او لغة مشتركة، كانت العلاقات في حد اقصى علاقات دينية، وحتى هذا الجانب كانت تطغى عليه اشكالية معينة٣.

منذ انشاء الدولة المستمر من سنوات الثلاثينات، وبشكل متسارع منذ اقامتها رسميا في عام ١٩٤٨ تكونت طبقة «الشرقي»٤. لا يوجد أي شيء «طبيعي» او «ثقافي» يربط كل يهود اليمن بكل يهود مصر، وحتى كل يهود مصر بكل يهود العراق، سوى العلاقة التي ربطت بينهم الدولة، بكونهم يهود من بلاد عربية ، بكون دولتهم معرفة كدولة يهودية(تحارب العرب او الشرق). من عُرّف كشرقيين («طوائف الشرق») داخل المجتمع الجديد كانوا الى حين قدومهم(حتى تحويلهم الى «شرقيين») جزءا من المجتمع العربي ، و/او اقلية دينية داخل المجتمع الاسلامي، ولكن بصورة واضحة ليسوا «شرقيين». ومجرد قدومهم الى الدولة التي عرفتهم في اطار النقاش الاستعماري القديم، تحولوا الى «شرقيين». او بكلمات اكثر وضوحا: من اللحظة التي وضعت فيها الدولة و/او الصهيونية امام كل اليهود التحدي القومي، أي التحول من دين الى امة، اضطر اليهود الذين قدموا من دول اسيا وافريقيا– سواء كان قدومهم عنوة، او بالاغراء، او بالرضا، او دون مبرر وحتى بواسطة تلهف مسيحاني – الى هجرة مضاعفة: في المرة الاولى تحولوا الى «شرقيين»، أي القبول بقاسم مشترك «غير اشكنازي»، ومباشرة وحالا التنكر لمنبتهم واصلهم وان يكونوا جزءا من «الاسرائيلية»، بمعنى اخر قبول هوية جديدة، تتعارض بالكلية مع ما كان منتميا لهم سابقا. عندما يشتكي يهوشوع: «اذا كنت بولونيا فإنهم لا يطلبون منك ولاء لبولونيتك، ولم يوجه احد الى يزهار أي اسئلة عن ماضي عائلته الروسي». انه يصل الى المكان الصحيح ولكنه يهرب منه حالا.

ولكن «الاسرائيلية» التي يتحدث عنها يهوشوع بلهفة كبيرة، عندما يصيبون النقطة الشرقية، فإنها ليست موقعا جديدا، لا علاقة له بالماضي ، او الواقع. انها وهم كبير٥. ولا أي عبارة اشكنازية من نوع «نحن ايضا مررنا في هذا الطريق»، ستساعد هنا. هذا ليس صحيحا. لم يمر الاشكنازيون في هذا الطريق. مر الاشكنازيون هجرة، بضمنها «اتون الصهر»، بضمنها «سلب الشتات»، بضمنها «الحداثة»، واجبروا في اسوأ الظروف على التحول الى نوع جديد من اليهود. ازاءهم، فإن اليهود من الدول العربية والاسلامية مروا في هجرتين: الاولى الى داخل تعريفهم من جديد كـ «شرقيين»، ومباشرة وحالا، او مرة هكذا ومرة بصورة اخرى، اضطروا الى المرور في هجرة ثانية: التنكر من كونهم غير اشكنازيين لصالح «الاسرائيلية». هذا الوهم مزقه يهوشوع في مولخو بقصيدة طويلة. هذا الوهم يسوقه يهشوع منذ مولخو بشكل دائم ومستمر مدفوعا بعجرفة.

لا يمكن التفكير بدولة اسرائيل دون التفكير بالحدود بين الشرق والغرب، بكون كل الشرقيين يعيشونه، في داخلهم، بمطالبة يومية من الطرف المسيطر. هذا الجرح ادى الى اطلاق شكاوى شرقية حول تمييز ، في «فولكلور مقتحم»، في شتائم ضد الاشكنازيين من النوع القاسي للغاية، عن طريق قرارات ثقافية او في العودة الى التراث، خاصة في اوساط العامة، وليس في اوساط الطبقة الوسطى، او في العودة الى الدين بطريق معينة، او من خلال الحفاظ على اللكنة «الشرقية». ولكن هذا الجرح ، دولة اسرائيل، يعرف الشرقيين كأقلية، ليس بسبب عددهم ضمن المواطنين، انما تماما بسبب التفسير الجيد الذي يقدمه يهوشوع عندما يوضح، «التنحية الايجابية» : لأنه يتوجب على الشرقيين ان يتلائموا مع المقاييس – «الحديثة»، الاغاني، الموسيقى الكلاسيكية، التطوع في وحدة مقاتلة، التفوق في الدراسة، او بكلمات يهوشوع البسيطة – ان تكون عامير بيريتس او ايلي عامير او نسيم زويلي.

الليكود، مثل احزاب اخرى تستقي من الكراهية – نجح في منح جماهير الشرقيين من الطبقات العامة متسعا اوضح بكثير مما منحهم اياه حزب مباي او حركة العمل: الحدود بين الشرق والغرب تمر بين اليهود والعرب. صحيح ان هذا ما فعله حزب مباي (التعبير الرمزي لذلك هو توطين الاف المهاجرين من الدول العربية في احياء سكنية وقرى تم تطهيرها للتو من ملاكيها الفلسطينيين وبالقرب من الخطوط الحدودية)، ولكن الليكود متحرر من » مشرقة«المهاجرين، أي في تعريفهم كشرقيين، اذ ان المباي جلبتهم الى هنا، مباي نفذت خطوات التحديث المهينة، مباي حاولت مغربتهم، أي حولتهم الى شرقيين في

الدولة اليهودية الغربية بواسطة المسيرة اعلاه. بينما الليكود، ازاء ذلك، منحهم فرصة الهروب من الشرقية ، وان يصبحوا «اسرائيليين»، أي ان يكرهوا العرب. مباي كانت «الدولة» في هذا المفهوم، أي المقطع المؤلم بين الشرق والغرب. الليكود في هذا المبنى هو «شعب اسرائيل»، او «الدولة الجديدة»، التي سيقيمها في يوم ما بعد ان يتخلص من العرب، او من «النُخب»، او من المجموعات الثلاث. هذا هو المسيح الذي يبيعه لناخبيه المساكين، مرافق تماما مع هدم دولة الرفاه الاجتماعي. من لا يستوعب فشل الشعار «مال للاحياء وليس للمستوطنات»، لا يستوعب الى أي مدى يحرر مشروع المستوطنات من ناحية بناء «شعب اسرائيل» او «الدولة الجديدة». وكلما تعمق الصراع مع العرب، ابتعد الشرق شرقا، وبإمكان اليهود ان يجدوا انفسهم في النهاية في الغرب.

ومن هذه الناحية ايضا، وليس فقط في مضمون الاقوال التي قالها يهوشوع في مقابلته مع هـآرتس، بخصوص «الانسحاب من غزة»، فإنه لا يختلف كثيرا عن الليكود. كراهيته للعرب لا تتشابه وكراهية قرائه الاشكنازيين للعرب. انهم يكرهون العرب ضمن منظومة كراهية الاستعمار للسكان الاصليين. انه يكره العرب بكونه ابن اقلية يكره الاقلية الاخرى. في الخلاصة ، فإن الكراهية الشرقية للعرب في اسرائيل، كراهية اقلية مجبرة ان تتحول الى «غير شرقي» او الى «اسرائيلي»، او الى «غير عربي». منذ ان كتب «مولخو» يحاول يهوشوع جاهدا نقل الحدود التي تمر في الاسرائيلي غير الاشكنازي، أي مولخو، الى مواقع اخرى، حتى يتحول اليهود الشرقيون في عالمه الخيالي الى «غربيين». «مار ماني» (اسم رواية ليهوشوع) كانت محاولة بيولوجية (وهو يقول: كان اليهود دوما ابناء خليط من شرقيين واشكنازيين ولكن المنتوج الاخير هو غربي)؛ «رحلة الى جوف الالف» محاولة ثقافية(يقول: انفصل اليهود عن الشرق منذ اكثر من الف عام، عندما اعلن المنع الاوروبي لتعددية الزوجات ، بعكس الاسلام).

٨. البقية غير الاسرائيلية

يهوشوع ليس يساريا ، وايضا ليس يمينيا. انه قومي، مثل معظم الاسرائيليين. قوميته هي تلك القومية التي اعترفت اوروبا بها في القرن التاسع عشر في مركزها وشرقها، بمعنى ليست قومية مواطنة، او ذات «علاقة بالارض»، انما انتماء الى «روابط دموية». انه ابن بار لهذا النوع من القومية٦. فهم القومية عند أ. ب. يهوشوع هو استغلال كل ما هو قاس وقوي في الصهيونية، واحيانا هذا غير صحيح محاكمة الصهيونية وفق اساس «غير المعروف» فيها، كما يتم التعبير عنه في تهييجات يهوشوع. في مقابلة لجروزالم بوست مباشرة بعد انتخابات ٢٠٠٣ شدد يهوشوع : «يهودية الشتات هي استمناء. هنا(في اسرائيل) الحالة الحقيقية». اذ انه من هي حنة ارندت ازاء مجرم الحرب دان حالوتس؟ ومن هو نوعام تشومسكي ازاء ايهود ياتوم، او ابطال اخرين من وحدة الاركان العامة؟ ومن هو جاك دريدا ازاء المسرح الكاميري؟ ومن هو الحاخام سولوبيتشيك ازاء شواطئ السباحة في اسرائيل؟، ولكن برغم البيان الكلامي، لا يوجد هنا نقاش صهيوني بن غوريوني مع «الشتات»، في مباراة حول «الروح اليهودية». يهوشوع لا يستطيع احتمال التفكير ان شيئا من الشعب اليهودي شيئا من الفسيفساء التاريخية اليهودية، والتي معظم طاقته الانتاجية تعمل من الخارج، وليس حصرا بالعبرية، يبقى خارجا، أي بعيدا عن متناول يد «اتون الصهر»، للسيادة ، بمعنى نفس الاسرائيلية التي ارسلته اليها امه حتى يندمج فيها. خوفه من ان شيئا خارج التاريخ الاسرائيلي يبقي في زخمه التقسيم الى «انواع من اليهود»، اذ انه عندها ينبع الخطر« يهود«غربيين» ويهود «غير غربيين». لانه من فترة لا يوجد شتات يهودي في الشرق، ما تبقى هو البقية الغربية، وهي هي الخطر على الهوية. بإختصار فإن الخطر على الاسرائيلية لا يأتي فقط من «الشرق العربي». انه يأتي من «الغرب اليهودي». الوضعان يفسران ليهوشوع من اين جاء. انه يكره المكان الذي منه جاء.

لهذا ، واكثر من أي شخص اخر يحتاج يهوشوع الى جدار فصل، لانه فقط بواسطة الفصل- بمعنى رسم واضح ل «داخل» و«خارج» - يمنحه احساسا، بتكوين «الهوية الموحدة». ولكن لا وجود لهوية موحدة. اربعون عاما من حكم فرانكو الديكتاتوري في اسبانيا ومنعه التحدث بلغة غير القشتالية ، لم ينجح، واسبانيا هي مولد لغات كثيرة- القطالونية، الغاليسية والباسكية. ورغم هذا فمن يجهد نفسه في دراسة «العروس المحررة» يجد ان المستشرق ريفلين يبحث في وجهة نظر مصابة بشأن الحرب الاهلية في الجزائر التي نشأت بسبب «بلبلة الالسن». (ولدعم موقفه اقتبس يهوشوع النظرية الاكاديمية الوهمية من مقالة سطحية عابرة لصحفي جزائري بشان «وحدة اللغة»). ولكن الرواية العنصرية هذه منحت يهوشوع اخيرا الخروج من النعش.

هنا نقل الحدود الى مكانها«النهائي»، بنفس العنف الذي يتحدث فيه عن فك الارتباط مع غزة: الشرق هو فلسطين، واليهودي هو اسرائيل وجزء من الغرب). حول مولخو منبته الى ريفلين (وتحول من شرقي الى مستشرق). وما عبرعنه مولخو في السابق يمر الان بين اسرائيل وفلسطين، ويشمل كل الاسرائيليين، بإسم الفصل الشرقي بين «ثقافة الشرق» (تم وصف هذه الثقافة في «العروس المحررة» بكونها متخلفة وهزيلة بشخص مغنية مغمى عليها وبشخص مبارزة شعرية سخيفة في رام الله) وثقافتنا(الموسيقى الكلاسيكية). والان بعد هذه الجولة الطويلة من المناسب العودة الى الاقتباس الطويل الذي افتتحنا به المقال والاصغاء جيدا للوحشية الكامنة فيه: «انا لا اريد ان اعرف اسماءهم بتاتا». بما يشبه الشتيمة اليهودية المخيفة: فليمح اسمهم، او دولة التصفيات.

ترجم: د. جوني منصور

الهوامش:

١ كعادته ، محرج يهوشوع من اكتشاف فلتة قلمه هذه، وفي روايته القادمة «بعثة المكلف المسؤول عن القوى البشرية » لم يمنح بطله اسما. هكذا التف على حاجته الى تعريف المنبت.

٢ انا ملتزم بهذا التفسير لغابي بتربورغ فيما يتعلق وظهور شاس ، «ممثلة الشرقية الاسرائيلية» في اقوال أ. ب. يهوشوع.

٣ يجب قراءة مشروع الحاخام عوفاديا يوسف بصورة جيدة لفهم التحول الكبير الذي احدثته وظيفة الربانية الرئيسية في فلسطين على يد الانكليز والصهيونيين في سنوات العشرينات بعد عشرات من السنوات التي كانت فيها عملية التمثيل الديني بيد السفارداديين تحت الحكم العثماني. الخطوة الراديكالية جدا التي خطاها الحاخام يوسف في مشروعه هذا لا صلة لها بأنظمة ذبح الحلال وفق العادات السفارادية وما له علاقة بذلك، اذ ان الربانية العسكرية تحترم العادات الاشكنازية (أي «ما هو عام»)، ولكن ادعاءه اصدار فتاوى وفق طريقة بيت الحاخام يوسف كارو صاحب «المائدة الجاهزة»، أي بموجب فتوى الحاخام المحلي، كارو. وهكذا يعدد الحاخام يوسف كل المفتين ، بما فيهم الاشكنازيين، ولكن يجب ان تتلاءم الفتوى في نهاية المطاف مع بيت الحاخام يوسف، بكونها قد وضعت وصدرت هنا في الامبراطورية العثمانية او فلسطين وليس هنالك، في اوروبا.

٤ هكذا يقول يهوشوع في مقابلة معه، اقوالا مؤثرة للغاية حول تكون الشرقي، دون ان يدرك انه يتحدث عن تكون هذه الطبقة : « وامي التي وصلت في جيل ١٦ سنة من المغرب ، كانت غريبة للغاية عن القدس. لم تعش الواقع الاشكنازي ولا السفارادي. لهذا وجهتني انا واختي الى صميم الكيان الاسرائيلي. كأنها قالت لنا من جيل مبكر ان ننطلق الى الخارج، الى اسرائيل الديناميكية. الا نعيش حياة الاقلية الضعيفة انما ان نتوجه الى الاغلبية . الى الساند» (ملحق «هآرتس»، ٢٠٠٤/٣/١٩).

٥ يهوشوع: « عندما كان جدي يسير في الشارع كان هذا امرا غريبا. كان يتوجب علي تفسير ذلك. افهم، كنت اقلية. وكأبن اقلية كان همي الا يدخلوني في الخانة. وتحول هذا الامر ليكون اشد صعوبة في سنوات الخمسين، عندما وصلت موجة الهجرة الكبيرة. عندما وصل كل الشرقيين هؤلاء. كان خطر كبير ان اجرف الى الموجة المغربية». (هناك).

٦ موضوع اخر هو الطريقة التي يحاول بواسطتها يهوشوع تغيير قوميته اثناء ظهوراته في اوروبا، تغيير يشير الى درايته للاشكالية في قوميته، خاصة في الغرب «العالمي»؛ ولكنه هنا لا يختلف عن بقية زملائه في السفر – عاموص عوز او دافيد غروسمان؛ ويقال لصالحهم ان جزءا كبيرا من التغيير لم يكن بإرادتهم، انما بيد المجتمع الذي استوعبهم كـ«اسرائيل الجميلة» والذي يوازن الشاعر الفلسطيني هذا عن الكاتب اللبناني ذاك. ان الاسرائيليين من اليسار الصهيوني هنا يكونون مهمة بناءة، لا مبالي للمحتويات العينية للـ«جمال»، مهمة «الاسرائيلي الجيد»، كاتب وفي الوقت ذاته يبغي السلام. لقد وصف كل من عوز ويهوشوع في بداية الانتفاضة كمعارضين لعرفات رغم انهم في الماضي «لوحقوا بسبب مواقفهم اليسارية». وصف التلفزيون الهولندي بالنسبة ليهوشوع، كما اوردناه اعلاه، ولعاموص عوز الذي قدم نفسه بصورة متشابهة في مقال في الجارديان ونيويورك تايمز ، حتى ليظهر ان الاثنين نالا توجيهات اعلامية من وزارة الخارجية الاسرائيلية. ومن جهة ثانية – وهنا تكمن النقطة الفاصلة في الشهوة الاوروبية لـ«مهمة كهذه» – بالرغم من ان سؤالا محرجا واحدا لا يعرض على الادباء هؤلاء ، في كل المواضيع التي تشغل بال الاوروبيين بما له علاقة باسرائيل، عندما يلتقون ادباء فلسطينيين، او يتناقشون فيما بينهم. على سبيل المثال: التمييز القانوني تجاه المواطنين العرب في اسرائيل، او جرائم حرب جيش الدفاع الاسرائيلي وهذه تطرح بغياب هؤلاء الادباء، ولكن عندما يكونون حاضرين لا يسألون حتى لو ابسط الاسئلة، مثل « هل تؤيد معارضي التجنيد؟ » اسئلة كهذه من المحتمل ان تخرب المعادلة «الاديب الاسرائيلي اليساري» نالحائز على كل انواع جوائز السلام (عاموص عوز حصل على جائزة ثمينة في خريف ٢٠٠٣ في برشلونة، مع المفكر سري نسيبة، بعد ان رفض اديب فلسطيني مشهور الحصول عليها مشاركة مع عوزبسبب مواقف عوز. أ. ب. يهوشوع نال جائزة السلام من نابولي تقديرا لمؤلفه«العروس المحررة» بينما نال طارق علي من كبار الادباء اليساريين البريطانيين جائزة نابولي حول كتابه«ضد حرب الخليج»). رغم التقارب البنيوي المتعلق بالحاجة الاوروبية ان تكون «متوازنا»، شيئ ما في حياة يهوشوع هام وله علاقة بموضوعنا : بسبب انشغاله العنيد بـ«الفاصل الثقافي» بين الشرق والغرب، يكتب على سبيل المثال ليهود فرنسا، والذين في مجملهم يقفون في موقف مشابه لموقفه(«شمال افريقيين معاندين في الا يكونوا عربا بواسطة تهجمات مضادة للعربية»)، ولكنه يكتب الى قرائه الاوروبيين، خاصة في مجتمعات ما بعد الاستعمار حيث فيها النقاش غير مجد، مثل ايطاليا او المانيا. لا يوجد انشغال سطحي وسخيف كذلك الانشغال في ماضي الجزائر مقابل حاضر الجزائر في «العروس المحررة» حتى يظهر مكانته في عالم يحاول العودة بفرح كبير الى انماط تفكير استعماري بمساعدة «الارهاب الدولي».